المقتطف

الجزء الثاني عشر من السنة الثالثة والعشرين

١ دسمبر (كانون اول) سنة ١٨٩٩ — الموافق ٢٧ رجب سنة ١٣١٧

دلسبس وترعة السويس

الراحة قبل العلم والثروة قبل العمران وما من بلاد رقيت مدارج الحضارة وسبقت في ميادين العلوم الا بعد ان وفرت ثروة اهلها واستتبت لهم الراحة والسكينة . ولقد كانت هذه الديار والديار الشامية وما بينهما من بلاد الانباط وما يتصل بهما من بلاد العرب والكلدان آهل البلدان واوفرها عمرانًا واوسعها علومًا يوم كانت بحط التجارة بين المشارق والمغارب ومخزنًا للبضائع وخزانة للاموال والمكاسب . وبقيت كذلك والدهر يصافيها تارة ويعاندها أُخرى والفاتحون يقصدونها ليغنموا خيراتها ويستولوا على موارد غناها الى ان اكتشف الاوربيون طريق الهند حول افريقية فتحوّل اليها جانب كبير من تجارة الهند والصين وعمرت بها اسبانيا والبرتغال وهولندا وانكلترا وتوزعت الثروة منها حتى عمت جانبًا كبيرًا من مدائن اوربا . وما كسبته تلك البلدان خسرته بلادنا الشرقية خسرهُ هذا القطر والقطر الشامي . ولكن طول الشقة حول افريقية منع تحوّل التجارة كلها اليها فبقي جانب كبير منها يرد بطريق حلب ودمشق ومصر وزاد ورودهُ لما كثرت سفن الاوربيين في بحر الروم وقُطع دابر القرصان منهُ

ولما استتبَّ للاوربيين عمل سكك الحديد في بلادهم خطر للانكليز ان يمدوها في القطر المصري فتصل صفنهم بالبضائع الشرقية الى السويس وتنقل منها بسكة الحديد الى القاهرة فالاسكندرية ثم توضع سبخ سفن اخرى وترسل الى البلاد الانكليزية . وخاطبوا العزيز محمد علي في ذلك فاجابهم اليهِ ثم عدل عنهُ وكانت السفن تأتي ببضائع المشرق الى السويس ثم تحمل منهُ على الجمال الى القاهرة وتشحن بها السفن في القاهرة فتنزل في النيل الى الاسكندرية وتشحن بها سفن بحر الروم الى اوربا او تأتي السفن بالبضائع الشرقية الى خليج العجم وتسير بها القوافل من

هناك الى حلب فالاسكندرونة او الى دمشق فوافي الشام وترسل منها في بحر الروم الى اوربا واميركا بعد ان تنتفع البلاد الشرقية باجرة نقلها ومكوس اصدارها

واما السيَّاح والمسافرون فكانوا يأتون من السويس الى مصر في مركبات تجرها الخيل وجعل لذلك ديوان يسمى ديوان المرور محلهُ سوق الخضر بالازبكية ومهدت الطريق بين القاهرة والسويس ورصفت بالحصى والطين وجعل عرضها ثلاثين مترًا وكان ذلك سنة ١٨٤٩ اي منذ خمسين سنة ولا يزال المطاعنون في السن الذين كانوا يتاجرون في هذه العاصمة منذ خمسين سنة يذكرون تلك الايام بالخير ويصفون سعتها ورخاءها وكثرة المتاجر فيها ولاسيما بعد ان مدَّت السكة الحديدية من الاسكندرية الى السويس فقد نقل المرحوم علي باشا مبارك في كتابهِ الخطط التوفيقية انهُ ورد على ميناء السويس سنة ١٨٥٨ اي قبل فتح الترعة اثنتان وسبعون باخرة حمولتها مئة وسبعة وعشرون الفًا وخمس مئة طن وصدر منهُ تلك السنة الى بلاد الهند والصين واليابان وجزائر المحيط اربعة وسبعون باخرة حمولتها مئة وثلاثة وعشرون الفًا وثمانمئة وسبعة وخمسون طنًا. ومرَّ بالسويس تلك السنة ١٧٩٢٥ نفسًا من الذاهبين الى البلدان الشرقية والآتين منها ساروا كلهم في القطر المصري وبلغت قيمة البضائع التي مرَّت في القطر سنة ١٨٥٧ على يد الشركة الانكليزية الشرقية وحدها ٦٥٩ ٨٩٣ ٠٠٠ فرنك اي اكثر من ٣٦ مليونًا من الجنيهات. وكان متوسط ما ينقل في السنة من النقود وحدها اثني عشر مليونًا من الجنيهات ومن المسافرين نحو اربعة وعشرين الفًا ومن البضائع نحو خمس مئة الف قنطار. هذا من حيث القطر المصري اما القطر الشامي فلا نعلم مقدار المتاجر التي كانت تمرُّ فيهِ ولكن البيوت الكبيرة في حلب ودمشق وخانات التجار الخاوية في طرابلس وصيداء تدل على ما كان من اتساع المتاجر ووفرة البضائع . وللمعتنين بتربية دود الحرير يكون على تلك الايام حينما كانوا يبيعون اقة الحرير باربعة جنيهات او خمسة قبلما سهل نقل الحرير الصيني والياباني الى اوربا فاختلَّت بهِ اسواقها ولم يعد ثمنهُ يفي باجرة مستخرجيهِ

وكأن الزمان الخوَّون رأى بعين ملأها حسد ما سيصل اليهِ هذا القطر اذا بقيت متاجر المشرق والمغرب تمرُّ فيهِ وتدفع اليهِ اجور نقلها ومكوس مرورها — نظر الى الاتصال بين المشرق والمغرب فرادهُ يزداد على نسبة هندسية فراعهُ مستقبل هذا القطر وتوفُّر الثروة فيهِ فاوعز الى دلسبس ان اخرق برزخ السويس وحوِّل هذه الخيرات عن ابناء مصر والشام الى ابناء اوربا ففعل برضى عزيز مصر وباموال اهلها ومع رجالها واليك تفصيل ذلك ملخصًا عما نشرناهُ في المجلد الثامن عشر من المقتطف وما نشرناهُ حديثًا في القطم

قضت الاقدار ان يكون سعيد باشا عزيز مصر رجلاً دمث الاخلاق سلس القياد وكان ده لسبس يعرف اماكن الضعف منهُ فجعل يحسن لهُ مشروعهُ ويزين نتائجهُ تارة بانها تخلد اسمهُ بين اعظم الاسماء الخالدة . وتارة انها تجعل رعمسيس الكبير الذي وصل النيل بالبحر الاحمر باهلاك ١٢٠ الف رجل دون من يصل بين البحرين ويمم مجدهُ الخافقين من غير ان يبذل درهماً من خزينته او ان يتعب احداً من رعيته . وتارة انهُ يرقي بهِ بلادهُ الى اسمى مقام سياسي ومالي . وتارة انهُ يملا بهِ خزائنهُ ذهباً من غير ان ينفق عليهِ غرشاً . وما زال ينسج على هذا المنوال حتى قضى لبانتهُ سنة ١٨٥٤ ومنحهُ سعيد باشا امتيازاً بفتح القنال وانشاء الشركة التي تفتحهُ على شرط ان هذا الامتياز يدوم لها ٩٩ سنة وانها تعطي مصر ١٥ في المئة من دخلها قبل طرح خرجها منهُ وانها تعطي الترعة لمصر بعد انقضاء تلك المدة ولا تأخذ شيئاً منها مقابل ما انفقتهُ عليها. ولعدم وجود الماء العذب في تلك الجهات تسمح الحكومة المصرية لاصحاب الامتياز ان يجروا ماء النيل على نفقاتهم من قرب القاهرة الى القنال ويملكوا الاراضي التي يصلونها على جانبي هذه الترعة الحلوة مدة ٩٩ سنة

وخاف سعيد باشا ان تستأجر الشركة جيشاً جراراً من العمال الاجانب لحفر القنال فحفظ لنفسهِ حق تقديم العمال اذا شاء ذلك على شرط انها تدفع اجورهم وتقدم لهم الزاد وتفتح المستشفيات وتعين الاطباء لمعالجتهم من مالها وانها تسعى بنفسها في الحصول على الفرمان الشاهاني للمصادقة على هذا الامتياز وهذه الشروط والاَّ كانت كلها لغواً

وقدَّر ده لسبس نفقة فتح الترعة ٢٠٠ مليون فرنك والحال انها لم تفتح باقل من ٤٧٦ مليوناً ولما قصد اوربا لتدبير المال لم يجد فيها من يجيبهُ الى سؤالهِ فعاد الى مصر يخفي حنينهُ ولسان حالهِ يقول انا لا نستغني عن فضل سعيد باشا . فجاءهُ من حيث تؤكل الكتف ولم يزل يبدي وسعيد وشركاؤهُ يقربون البعيد حتى اقرضهم سعيد باشا مليونين و ٤٠٠ الف فرنك انفقوها في الاعمال الابتدائية وسبق وجوه اخرى جوهرية واحسوا ان رغبتهُ في فتح الترعة تزيد فطلبوا امتيازاً آخر وهو حفر ترعة حلوة ثانية من ملتقى الترعة الاول الحلوة بالقنال الى السويس جنوباً والى بورت سعيد شمالاً وان يعطوا الاراضي التي يصلونها على جانبيها فيرورن للناس بالاجرة وان يدوم ذلك الامتياز لهم ٩٩ سنة . ولكن ذلك ايضاً لم يجد نفعاً بل بقيت دفاتر الاكتتاب في باريس مفتوحة من شهر نوفمبر ١٨٥٨ الى سنة ١٨٦٠ ولم يبالِ احدٌ بها . فاعادوا الكرة على سعيد باشا وما زالوا بهِ حتى اكتتب بنحو نصف اسهم الشركة اي ١٧٧٤٠٠ سهم واسهم الشركة ٤٠٠ الف وكانت خزائن مصر حينئذٍ صفراً

من النقود فسهلوا عليه الامر وقالوا يكفينا ان تأخذ سندات بتلك القيمة وصارفة اوروبا يصرفون لنا قيمتها بربح ١٠ في المئة فقط ثم توفيهم خزينة مصر ذلك المال وفائدته في اربعة آجال سنوية فلما اكتتب سعيد باشا بهذا القدر العظيم اقبل اهل اوروبا على الاكتتاب اقبالاً عظيماً

وتوفي سعيد باشا سنة ١٨٦٣ وخلفه اسمعيل باشا فجاءته شركة القنال واخذت منه الاموال على اساليب شتى وظلت مصر تدفع والشركة لا تقنع حتى بلغ ما دفعته من النقود وحدها ١٣٢ مليوناً من الفرنكات ويقدّر الخبيرون انه اذا حُسب ما غرمته مصر على ترعة السويس تماماً اجمالي وما لم يحصَ من بداية هذا الامتياز الى نهايته لم يقلّ عن ٥٠٠ مليون فرنك اي نحو عشرين مليوناً من الجنيهات وهو اكثر من النفقات التي يقال ان الترعة فُتحت بها ولم تجنِ مصر منها غير تحويل التجارة عنها الى سواها

اما ده لسبس فاتم هذه الترعة فرجل من اعظم رجال فرنسا واعلاهم همة ولد بفرساي في ١٩ نوفمبر سنة ١٨٠٥ ودرس حتى يتقلد الخطط السياسية. وخطر له فتح ترعة السويس سنة ١٨٤٩. وكان مهندسو الانكليز يحسبون فتحها ضرباً من المحال وساستهم يوجسون منها شراً وتجارهم يرون فيها ما يحوّل تجارة المشرق عن بلادهم الى غيرها من البلدان الاوربية فلم يأخذوا بيدهم بل بذلوا جهدهم في احباط مساعيه لكنهم لما رأوا فوزه جروا على حد المثل القائل اذا لم يكن ما تريد فأرد ما يكون فانصت عليه الملكة فكتوريا بشأن كوكب الهند ومنحته مدينة لندن حريتها وبذل الانكليز جهدهم لكي ينتفعوا من هذه الترعة ويتلافوا مضارها. وهي السبب الاكبر لتوطيد اقدامهم في الديار المصرية. ثم حوّل ده لسبس همته الى فتح برزخ بناما لم يجد هناك ما وجده من ولاة مصر ورجالها وعاد عمله عليه بالخسران والخذلان كما بسطناه غير مرة وتوفي مصدوع الفؤاد في السابع من دسمبر سنة ١٨٩٤

وقد ارادت الشركة ان تبقي له اثراً بجانب الترعة التي تجشم المشاق في فتحها فصنعت له تمثالاً كبيراً من البرنز نصبته في بورت سعيد عند مدخل الترعة ودعت الجناب الخديوي لرفع الستار عنه يوم عيد ثلاثين سنة مرّت على فتح الترعة فلبى دعوتها هو ووزراؤه وتم الاحتفال بذلك في الثامن عشر من شهر نوفمبر وكان عدد الحضور نحو خمسة آلاف نفس وخطب الجناب الخديوي خطبة وجيزة وابرنس دارنبرج ونيس شركة الترعة خطبة مسهبة عدّد فيها مناقب ده لسبس والسير فوكه خطبة اخرى جاء فيها على خلاصة تاريخ فتح السويس وختم السير نوبل ده لسبس ابن صاحب الاثر العظيم بالشكر لجناب الخديوي وسائر المدعوين والمحتفلين